المجلة الدولية لدراسات اللغة العربية وادابها
International Journal of Arabic Language and Literature Studies
Homepage : https://al-kindipublisher.com/index.php/ijals
ISSN: 2707-7659

الثنائيات الضدية في شعر عنترة بن شداد

The Binary Oppositions in Antarh's Ibn Shaddad Poems

سنا زهير بلطه جي، جامعة الوصل، دبي، الإمارات العربية المتحدة. البريد الالكتروني: sana.zuhir@gmail.com

الملخص:
ركز البحث على شكل من أشكال النقد البنيوي، وهو (الثنائيات الضدية) تحديدًا في أشعار عنترة بن شداد، فالبيئة التي عاش فيها قد أثرت بشكل كبير على قصائده، وهذا التضارب في المعاملة التي تلقاها من قبيلته، وحبه لعبلة كلها أمور أدَّت إلى تناقض أبياته؛ فتارة يفتخر بسواد لونه، وأخرى ينسب البياض للفضائل، وتراه يخشى الموت ساعيًا للحياة أحيانًا، وطالبًا للموت تائقًا إليه غالبًا، مفتخرًا بقوَّته خلال أبياته، ومُظهرًا ضعفه أمام محبوبته؛ لتعلم أنَّ هذا القوي المقدام رقيق أمام حبها، وينسب الفضل في مكانته إلى قومه وقبيلته أمام أعدائه لكن لا توجد قصيدة تخلو من تبيان أنَّ ذيوع صيته، والمقام الذي وصل إليه كان بسبب شجاعته وقوته وحده، فعلى هذا الأساس يتبيَّن للمطَّلع بعض ملامح حياة عنترة في زمنه.

الكلمات المفتاحية: نقد بنيوي – ثنائيات ضدية – عنترة بن شداد – أشعار

Abstract
This research focuses on a form of Structuralism which is (Binary oppositions) especially in Antarah Ibn Shaddad poems, because the environment that he lived in had massively affected his poems, the discrepancy of his tribe treating him, and his love for Abla it is all things that lead to his oppositions, thus sometimes he brags about his black color, other times he assigns the white for the morality, sometimes he fears death and seek life, but mostly he seeks death with eagerness, he shows how proud he is with his powers, and how weak he is in front of his lover; so she knows that this powerful warrior is soft before her love, when he directs his speech to the enemies he gives the credit to his tribe for what he achieved, but there is no poem without him showing that the real reason for his famousness and achievements is thanks to his braveness and mightiness, starting from those things the reader will understand some of Antarah's life in his time.

Keywords: Structuralism – Binary oppositions – Antarah Ibn Shaddad – poems

المقدمة:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين البليغ الأمين محمد بن عبد الله وآله وصحبه أجمعين، أما بعد...

عُدَّ الشعر في الجاهلية أساس كل شيء، فالشاعر هو لسان القبيلة يرفع من شأنها ويذود عنها؛ لذلك احتفت القبائل بنبوغ الشعراء فيها، ومع ظهور الشعر ظهر النقد بإرهاصاته الأولية، لم يكن نقدًا معياريًا إنما كان قائمًا على الذوق، لكن مع تقدم الزمن والانشغال بالشعر رأى البعض أهمية أن توضع قوانين للحكم على القصائد؛ إذ لا يحكم كل إنسان على هواه، وظهرت على إثر ذلك مناهج نقدية عديدة ما تزال تستخدم على الشعر قديمه وحديثه، فالشعر بحر لم نصل إلى كل درّه؛ إذ إن شعر عنترة على الرغم من شهرته وقدم زمنه إلا أننا نجد فيه بعض الجوانب التي قلَّ ما يُتطرق إليها ومن هذه الجوانب (الثنائيات الضدية).

تقوم هذه الدراسة على البحث في أشكال الثنائيات الضدية لعنترة على أشعاره؛ إذ نجد أبياتٍ يعلي خلالها من شأن اللون الأسود، وأبياتٍ أخرى يمدح بها الأبيض، ثم يتحدث عن نسبه وقبيلته، ويرى أنها السبب في وصوله إلى هذه المنزلة إلا أنه يذكر أن قبيلته لم تقدم له أي عون فيما وصل إليه، إنما ذلك كان بفضل شجاعته وشدته، كذلك الأمر بالنسبة إلى ضعفه وقوته أمام محبوبته، وفي حبه للموت وخشيته منه.

- **الأهمية:**

يعد عنترة من أبرز الشعراء الجاهليين، وعلى الرغم من الدراسات الكثيرة التي تدور حول شعره إلا أنه ما يزال هناك كثيرٌ مما يحتاج إلى بحث ودراسة، فما هذا البحث إلا لفتًا لنظر القارئ الكريم إلى واحدٍ من أبرز معالم العصر الجاهلي، وأثره في نفوس شعرائه ألا وهو دور القبيلة في بناء الشخصية؛ إذ إن أشعار شعراء ذلك العصر بشكل عام وعنترة بشكل خاص تعد وثيقة تاريخية نعود إليها، ومع عمق تحليلها ودراستها نصل إلى خلق صورة أوضح لملامح العصر.

- **الإشكالية:**

أما إشكالية هذا البحث فتكمن في:

1. ما هي الثنائيات الضدية؟
2. كيف عبر عنترة عن تناقضاته الفكرية؟
3. كيف تجلّت تلك التناقضات في قصائده؟

- **منهج البحث:**

يقوم البحث أساسًا على المنهج البنيوي؛ لكون الثنائيات الضدية مستوى من مستوياته، بالإضافة إلى الاستفادة من بعض الأمور التي تندرج ضمن المنهج النفسي، مثل بيان بعض آثار الشاعر النفسية.

- **الدراسات السابقة:**

وجِدَتْ دراسات تحمل مثل هذه الفكرة، أو مقاربة لها منها:

1. بخشان رحيم رشيد المظفري: ثنائية الأبيض والأسود في شعر عنترة بن شداد العبسي – العراق – جامعة رابة رين.
2. سمر الديوب: الثنائيات الضدية (دراسات في الشعر العربي القديم) – دمشق – منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب – وزارة الثقافة – 2009م.
3. نور خالدي محي الدين: الثنائيات الضدية في الشعر العربي القديم: عنترة بن شداد نموذجًا – مجلة إشراقات تنموية.
4. د. وسام حسين العبيدي: ثنائية العفة والجرأة في الشعر الجاهلي: عنترة بن شداد نموذجًا – مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية – جامعة بابل.

جاءت الدراسات السابقة في موضوع هذا البحث، إلا أنها اختلفت في بعض النقاط، ومنها:

1. توسع هذا البحث ليشمل عددًا أكبر من الثنائيات المنتشرة في أشعار عنترة.
2. إضافة ثنائية جديدة، وهي (ثنائية القوة والضعف).

- **خطة البحث:**

قُسِّمَ البحث إلى:

1. مقدمة.
2. تمهيد (تعريفات أولية).
3. المبحث الأول (ثنائية الأبيض والأسود).
4. المبحث الثاني (ثنائية الحياة والموت).
5. المبحث الثالث (ثنائية القوة والضعف أمام المحبوبة).
6. المبحث الرابع (ثنائية القبيلة والشجاعة).
7. خاتمة.
8. مصادر ومراجع.
9. فهرس

تواجه الباحث صعوباتٌ عدة منها ما تعرَّضت له في هذا البحث من صعوبة طفيفة في معرفة مراد عنترة تمامًا من بعض أبياته؛ إذ إنها جاءت مبطَّنة المعنى، بالإضافة إلى عدم وضوح خط هذا الديوان، وأتقدم بالشكر الجزيل إلى الدكتورة الفاضلة لطيفة الحمادي التي تابعت هذا البحث بكلّ صبر وإخلاص، وحرصت على تعليمي، فباهتمامها بالتفاصيل، ونقدها البناء جعلت بحثي على المسار الصحيح قدر الإمكان.

تمهيد: تعريفات أولية

تدخل الثنائيات الضدية ضمن المنهج البنيوي وتعتبر واحدة من مستوياته، وهذا المنهج من المناهج الحديثة التي ظهرت في القرن التاسع عشر، لذا من الأفضل البدء بنبذة بسيطة عن كل من المنهج البنيوي والثنائيات الضدية.

- **المنهج البنيوي لغةً واصطلاحًا:**
- **التعريف اللغوي:**

مصطلح (المنهج البنيوي) عبارة عن جملة مكونة من شقين (منهج) و(بنية)، ولفهم المصطلح بشكل صحيح يجب معرفة معنى كل كلمة في حالتها الوضعية في المعاجم، فالمنهج يعني كما ورد في لسان العرب: "منهج من نهج: أبان ووضح، وفلان يستنهج سبيل فلان: أي يسلك مسلكه، والنهج: الطريق المستقيم"[1]، وورد في المعجم الوجيز:"نهج الطريق؛ أي وضح واستبان"[2]، أما البنيوي فقد ورد في لسان العرب: "بنى: نقيض الهدم"[3]، أما في المعجم الوجيز: "بنى الشيء: أقام جداره ونحوه، انبنى عليه: ترتب عليه، والبنية: ما بُني"[4]، إذًا بعد تركيب المصطلح يتبين أنه يعني: الطريقة التي يسير عليها البناء (بناء النص).

- **التعريف الاصطلاحي:**

بدأت إرهاصات هذا المنهج في النصف الأول من القرن العشرين نشأت في حقل الدراسات اللغوية كونه أساس الفكر البنيوي، فأفكار دي سوسير* هي المنطلق لهذه التوجهات البنيوية عبر وضعه للثنائيات المتقابلة أهمها ثنائية (اللغة والكلام)؛ للتفريق بين القواعد الموجودة في أذهان جماعة من الناس ينتمون للبيئة نفسها وبين الاستخدام الفعلي لهذه القواعد، فتصور سوسير للغة مقارب للتصور الحديث "أبنية اللغة" أما أساس المنهج فأتى من ثنائية التاريخي (التطوري)؛ وهي دراسة الظواهر عبر الزمن، والوصفي (الآني)؛ وهو دراسة ظاهرة معينة في لحظة معينة وتندرج ضمنه البنيوية، بالإضافة إلى مساهمة المدرسة الشكلانية الروسية في إنشاء هذا المنهج، إلا أن المصطلحات العلمية المتعلقة به قد ظهرت فيما بعد.[5]

جاءت لفظة (البنيوية) من البنية والتي ذُكِر معناها آنفًا، وبناءً على ذلك تم تعريف البنيوية: "الكيفية التي تنتظم بها عناصر مجموعة ما؛ أي إنها تعني مجموعة العناصر المتماسكة فيما بينها بحيث يتوقف كل عنصر على باقي العناصر، فهي مجموع العلاقات الداخلية الثابتة التي تميز مجموعة ما"[6]، إذًا فإن هذا المنهج يعمد إلى فكرة أن النص عبارة عن بناء متماسك يمكن تجزئته، لكن لا يمكن فصله، وأن العناصر المكونة لهذا النص تؤدي هدفًا واحدًا، بالتالي فإن هذا المنهج يركز على النص بعيدًا عن أي عوامل أخرى خارجية.

- **الثنائيات الضدية:**

يرى البعض أن معنى الثنائيات الضدية موجود منذ القدم في كتب البلاغة لكن تحت مسميات مختلفة (الطباق والمقابلة) ويكون في اللفظ أو في المعنى، ويزيد من قوة المعنى المرغوب عن طريق طباق السلب أو الإيجاب[7]، إلا أن المصطلح المستخدم هنا هو مصطلح فلسفي حديث استُخدم في النقد، وكون هذه الكلمة مكونة من شقين فالأجدر أن يتم ذكر معنى كل شق كما ورد في اللغة، بدءًا من معنى الثنائية: "الثنائي من الأشياء: ما كان ذا شقين"[8]، ثم الضدية فتعني: "الضد: المخالف والمنافي، والضدان: اللذان لا يجتمعان مثل الأبيض والأسود"[9]، أما المعنى الاصطلاحي في المنظور الفلسفي فهو: "القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها..."[10] ، تقوم هذه الثنائية على فكرة فلسفية تقول إن هناك إمكانية للربط بين الظواهر التي يبدو أنها منفصلة، فالتضاد رابطة لا تختلف عن التماثل، إذا اجتمع الضدان يكون أثرهما في النفس أقوى وأوضح، ويجدر التنبه إلى أن التضاد معناه يختلف عن التناقض؛ إذ إن الأخير يعني نفي إحدى الحالتين، فالظلام نقيض النور في حالة النور يختفي الظلام، أما مثلًا الأسود والأبيض لا يزيل أحدهما الآخر تمامًا، كذلك الأمر بالنسبة إلى الحالات النفسية التي إن جاءت متضادة أدت إلى إيضاح المعنى، ولا تُستخدم هذه القضية في البحث عبر الألفاظ فقط بل يتخطاها أيضًا إلى الرموز[11]، تصب كل المفاهيم النقدية القديمة والحديثة في خدمة النص الأدبي، وتتداخل العلوم لتحقيق هذه الغاية، فنجد أبسط مصطلح فيها يخلق قضية عميقة في رحاب النصوص، وهكذا الثنائيات الضدية هي مصطلح واحد ضمن مصطلحات عدة نشأت في المنهج البنيوي لكن الخوض في هذا المصطلح يتطلب بحثًا عميقًا وتمحيصًا في الأعمال الأدبية الشعرية منها والنثرية.

المبحث الأول

ثنائية الأسود والأبيض

يشكل اللونان الأسود والأبيض ظاهرة في أشعار عنترة بن شداد ناجمة عن حالته النفسية التي تكونت إثر معاناته من ظلم قبيلته له ومعاملتهم له بدونية على الرغم مما فعله لهم في المعارك؛ إذ كان الناس يعيرونه على لون بشرته، وكلما أرادوا ذمه ذكروا لونه ونسبه إلى والدته؛ فقد ولد من أمة اسمها زبيبة وعلى عادة العرب قديمًا سار والد عنترة فاتخذ ابنه الذي أنجبه منها عبدًا، ولم يعتقه إلا حين طُلب من عنترة القتال لكنه أبى قائلًا: إن العبيد لا يحسنون القتال، على الرغم من قوته وحاجة قومه له؛ وما ذلك إلا لظلمهم إياه برفضهم إعطاءه أي من غنائم المعركة بحجة أنه عبد ولا نصيب له، فما كان من والده إلا أن قال: "كر وأنت حر"[12]، وقد عانى كثيرًا من ظلم قومه له ومعايرة العرب له في لونه؛ إذ يقول:[13]

وَمَا وَجَدَ الأَعَادِي فِيَّ عَيبًا فَعَابُوني بِلَونٍ فِي العُيونِ

لذلك سعى في أغلب أبياته أن يبين للعرب كافة ولقومه خاصة أن لونه لا علاقة له بقوته وصلابته في المعارك، ولا يقلل نسبه إلى والدته من شأنه فيقول:[14]

مَا سَاءَنِي لَونِي وَاسمُ زُبَيبَةَ أَنْ قَصَرَت عَن هِمَّتِي أَعدَائِي

- **أبياته في السواد:**

للألوان في الأشعار دلالات تختلف من شاعر إلى آخر، ومن حالة نفسية إلى أخرى، وهكذا الأمر بالنسبة إلى عنترة مع اللون الأسود؛ إذ نلاحظ أن هذا اللون قد ساد في أبياته بطريقتين إما تضمينًا عن طريق ذكره عتمة سماء المعركة أو الغربان...وغيرها، أو عن طريق نسبة هذا اللون إلى شيء آخر غير نفسه، وإما صراحة؛ لبيان أمرين: الأول – اللون الذي يعيبونه به هو موضع فخر، وليس كما يزعمون، الثاني – اللون الأسود هو لون مميز ويدل على القوة، مثال ذلك تشبيه لونه بالمسك حين قال:[15]

لَئِن أَكُ أَسوَدًا فَالمِسكُ لَونِي ومَا لِسَوادِ جِلدِي مِن دَوَاءِ

وَلَكِن تَبْعُدُ الفَحشَاءُ عَنِّي كَبُعدِ الأَرضِ عَن جَوّ السَّمَاءِ

فالناس يسيئون إليه بسبب لونه، وهذا لا يسوءه فلونه مثل لون المسك، لا يوجد سبيل لأن يكون أبيضًا مثلهم، ولكن بياضه هو يكمن في خصاله الحميدة، إذًا يخبرهم أن المكانة لا تعلو لمجرد لون الظاهر إنما بصفات الشخص، وأيضًا في أبياتٍ أخرى يقول ما يؤكد الكلام السابق، وهذا بيت من قصيدة قالها حينما خرج يومًا لنجدة صديق له واشتاق لعبلة:[16]

وَإِن كَانَ جِلدِي يُرَى أَسوَدًا فَلِي فِي المَكَارِمِ عِزٌّ وَرُتْبَة

وقال أيضًا:[17]

تُعِيرُنِي العِدَا بِسَوَادِ جِلدِي وَبِيضٌ خَصَائِلِي تَمْحُو السَّوادَا

كأنه في هذه الأبيات يوافق قول من قال: إن سواده يعيبه، إلا أنه يؤكد مجددًا أن عيب السواد لا يكون بالظاهر إنما في الباطن – أي الصفات النفسية – وإن كان البياض يمثل الحُسن كما يقولون، فخصاله بيضاء لدرجة تمحو الظاهر أو تغض الطرف عنه، وفي أبياتٍ أخرى يرى أن سواده هو الذي يجعله مميزًا، فكما يفخر الناس بنسبهم يفخر هو بلونه:[18]

لَئِن يَعِيبُوا سَوَادِي فَهُوَ لِي نَسَبٌ يَومَ النِّزَالِ إِذَا مَا فَاتَ النَّسَبُ

يخجل عنترة من لونه في حالة واحدة فقط، وهي إن كان يتحدث عن عبلة، فيحاول دومًا أن يجعلها تنسى سواد لونه وتركز على مكارم أخلاقه:[19]

لَعَلَّ عَبلَةَ تُضْحِي وَهِي رَضِيَّةٌ عَلى سَوَادِي وَتَمحُو صُورَةَ الغَضَبِ

وكذلك في الأبيات التي قالها في إغارته على بني كندة، يخبر فيها عبلة أنه لا يوجد أحد مثله، وإن وجدت فلتتركه لأجله، لكنه يطلب منها ألا تهتم للونه:[20]

وَإِن أَبصَرْتِ مِثلِي فَاهجُرِينِي وَلَا يَلحَقْكِ عَارٌ مِن سَوَادِي

يبين عنترة أن اللون الأسود لم يكن يومًا مجالًا للحكم عليه، فهم يعيبون عليه هذا ولكن مآثره في الحرب لا يغيرها لون، فما كان لأمر كهذا أن يحط من أمر عنترة كما يريد أعداؤه؛ إذ إن مناقبه هي التي رفعت شأنه، ولا يمكن لشيء آخر أن يحط منه، فيقول في ذلك أثناء مبارزته لشخص يدعى أنس بن مدرك:[21]

وَمَا عَابَ الزَّمَانُ عَلَيَّ لَونِي وَلَا حَطَّ السَّوَادُ رَفِيعَ قَدْرِي

وإن أراد أن يجاريهم فيما يقولونه بشأن البياض، فإنه أبيض لما في شخصيته من خير، هنا هو لا يفتخر بلونه بل يفتخر بشخصه مريدًا في ذلك لفت انتباه الناس إلى أمر آخر أهم من الظاهر:[22]

سَوَادِي بَيَاضٌ حِينَ تَبدُو شَمَائِلِي وَفِعلِي عَلَى الأَنسَابِ يَزهُو وَيَفخَرُ

إذ يريد أن يخبرهم إن كان سواده عيبًا فما هو إلا غطاء لبياضه الحقيقي:[23]

وَإِن يُعِيبُوا سَوَادًا قَد كُسِيتُ بِهِ فَالدُّرُّ يَستُرُهُ ثَوبٌ مِنَ الصَّدَفِ

كذلك أيضًا قوله:[24]

يُعِيبُونَ لَونِي بالسَّوَادِ وَإِنّمَا فعالهم بِالخُبثِ أَسوَدُ مِن جِلدِي

إذ يقصد بهذا أن السواد الحقيقي الذي يعيبونه ليس الظاهر، إنما العيب يكمن في التصرفات، إن أرادوا أن يذموا لونه ففعالهم أحق بأن تُذَم، وبهذا أيضًا يردُّ على من يعيب سواده، فهو يريد أن يري كل شخص قد عاره أن عنترة بأفعاله أعظم مما يظنون:[25]

وَمَن قَالَ إِنّي أَسوَدٌ لِيُعيبَتني سَأُرِيهِ بِفِعلِي أَنَّهُ أَكذَبُ النَّاسِ

كذلك ينسب هذا اللون لذاته على سبيل التفاخر به، وكأنه يقول: إنه الشجاع المقدام الذي لا يخشى المعارك والخوض فيها، وقد قال هذا البيت ضمن أبيات أخرى مخاطبًا رجلًا أُمرَ بقتل عنترة مقابل الزواج من عبلة:[26]

وَأَنَا الأَسوَدُ وَالعَبدُ الَّذِي يَقصِدُ الخَيلَ إِذَا النَّقعُ ارتَفَعْ

ويفخرُ كذلك بلونه عن طريق ربطه بشجاعته؛ إذ غالبًا ما يخاطب نفسه عن طريق تسمية نفسه بلونه حين يكون في المعارك:[27]

وَلَمّا أَوقَدُوا نَارَ المَنَايَا بِأَطرَافِ المُثَقَّفَةِ العَوَالِي

طَفَاها أَسوَدٌ مِن آلِ عَبسٍ بِأبيضَ صارِمٍ حَسَنُ الصِّقَالِ

من أوجه فخر عنترة بلونه أيضًا أن ينسب هذا اللون إلى الموت، ليس تشاؤمًا بل بيان عظمةٍ يشترك بها مع الموت كما يقول:[28]

وَأَنَا المَنِيَّةُ وَابنُ كُلُّ مَنِيَّةٍ وَسَوَادُ جِلدِي ثَوبُهَا وَرِدَاهَا

يرد عنترة على من يعيب عليه لونه، ويرفض أن يستمر الناس بهذه المعايرات التي تنم عن جهلهم، ويفتخر من ناحية أخرى بامتلاكه لهذا اللون، قائلًا في هذا الأمر:[29]

يَعِيبُون لَونِي بِالسَّوادِ جَهَالَةً وَلَولا سَوادُ اللَّيلِ مَا طَلَعَ الفَجرُ

فما يقوله الناس عنه ما هو إلا محض جهالة نابع من عدم إدراك أن السواد هو الأصل الذي ينبع منه البياض، فلولا الليل لما وجدت قيمة النهار، في كل الأبيات السابقة جاء الحديث عن اللون الأسود صريحًا كما نسبه إلى نفسه مباشرة، أما الأبيات الآتية سيكون حديثه عن هذا اللون مبطنًا، إما عن طريق إتيانه بكلمة تدل على السواد، أو نسب هذا اللون إلى شيء آخر غير نفسه؛ تحقيقًا لغرضٍ معين، فمثلًا هنا يقوم بوصف أرض المعركة وما ينتج عنها من ظلام:[30]

ضَربٌ وَطَعنٌ تحتَ ظِلِّ عَجَاجَةٍ كَجَنحِ الدُّجى مِن وَقعِ أيدي السَّلاهِبِ

كذلك قوله:[31]

ولَا تَذكُر لِي غَيرَ خَيلٍ مُغبَرَّةٍ وَنَقعَ غُبَارٍ حَالِكِ اللَّونِ أَسودَ

وتعبيرًا عن قوته استخدم هذا اللون تحديدًا؛ ليشير من خلاله إلى أرض المعركة في الأبيات التي نظمها حزنًا على أخذ عبلة ضمن السبايا، وأخذه أسيرًا؛ فلم يتمكن من مساعدتها:[32]

يا عَبلَةُ كَم مِن جُحفُلٍ فَرَّقْتُهُ والجَوُ أَسوَدُ وَالجِبالُ تَميدُ

ومن أوجه تعبيره عن القوة من خلال اللون الأسود في أرض المعركة قوله:[33]

وَذَوَابِلُ السُّمرِ الرِّقَاقِ كَأَنَّهَا تَحتَ القِتَامِ نُجُومُ ليلٍ أسودِ

فهنا سيوفه تلمع في المعركة، فلا يُرى منه - أثناءها وفي العجاجة - إلا بريقها؛ إذ أكثر ما وصفه في المعارك لون السماء إثر الدخان والغبار الناجم عنها، ومن ذلك أيضًا قوله:[34]

وَصَوتُ حُسَامِي مُطرِبِي وَبَرِيقُهُ إذا اسـوَدَّ وَجـهُ الأُفُـقِ مِـقبَاسِي

ظلام المعركة كلما اشتد، وكان حالك السواد كلما كانت المعركة أقوى؛ لذا هو يفتخر بنفسه أنَّه لا يخوض غمار أي معركة إلا إن كانت سماؤها حالكة بالسواد:[35]

فَسَائِلِي فَرَسِي هَل كُنتُ أُطلِقُهُ إلَّا عَـلَـى مَـوكِـبٍ كاللَّيلِ مُحتَبِكِ

ووصف القوة هذا ليس فقط عن طريق ذكر مدى ظلمة الغبار الذي تشكّل من المعركة بل بوصف الخيل أيضًا، فعنترة يوضح في أكثر من بيت أنَّ الأحصنة التي يُفضّلها هي الأحصنة السوداء، فيقول:[36]

وَالخَيلُ سُودُ الوجُوهِ كَالِحَةٌ تَخُوضُ بَحرَ الهَلاكِ والخَطَرِ

وفي نفس الوصف أيضًا قوله:[37]

خُضتُ الغُبَارَ وَمَهرِي أَدهَمٌ* حَلِكٌ فَـعَـادَ مُـخـتَضِبًا بِالدَّمِ والجِيَفِ

ويدلّلُ أيضًا على اختياره الخيل الأسود دون غيره بقوله:[38]

أَدهَـمٌ يَـصـدَعُ الـدُّجَـى بِـسَوَادٍ بَـيـنَ عَـينَـيـهِ غُـرَّةٌ كـالـهـلالِ

إذ إنه كرر استخدام ما يدل على اللون الأسود (أدهم، دجى، سواد) تأكيدًا على سواد المعركة ككل؛ فالخيل أسود وسماء المعركة مثل الليل حالك، وهكذا سارَ في أبياتٍ أخرى جاعلًا كلَّ خيول المعركة سوداء، وليس فقط خيله:[39]

حَتَّى رَأَيتُ الخَيلَ بَعدَ سَوادِهَا حُمرَ الجُلُودِ خُضِّبنَ مِنْ جَرحَاها

وتبيانًا أيضًا لشدة المعركة؛ إذ إن هذا اللون من الصعب أن يظهر عليه أثر لونٍ آخر، إلا أنه يقول أن لونها قد تحول إلى الأحمر دلالة على كثرة دماء أصحابها عليها، والذين هم أعداؤه، ومن أوجه القوة التي جعلها عنترة في السواد وصف المعركة، ومقارنة هذا اللون ببياض الحب الذي يتميز بالنعومة:[40]

في الخَيلِ والخَافِقَاتِ السُّودِ لي شُغلٌ لَيسَ الـصَّـبَـابَـةُ وَالصَّهبَاءُ مِن شُغلِي

وفي قصيدة أخرى بعدما أُسرَ ولداه:[41]

أَحـرَقَـتـنِـي نَـارُ الـجَـوَى وَالبِعادِ بَـعـدَ فَـقـدِ الأوطَـانِ وَالأَولادِ

شَابَ رَأسِي فَصَارَ أَبيَضَ اللَّونِ بَـعـدَمـا كَانَ حَـالِـكًـا بـالـسَّـوادِ

فجاء اللون الأبيض هنا دلالة على الضعف والوهن، وعدم القدرة على إنقاذ من يريد إنقاذه، فكأنه يقول: إنه لم يعد الشاب الأسود القوي الذي لا يردعه شيء، فقد كبر بالسن، وشاب شعره، وتحول سواد قوته إلى بياض الرقة، ويتبين للقارئ في أبيات قصائده أنَّ الشاعر يجسّد نفسه بالغراب، فكل مرة يقاسي مأساة يجد رفيقه وشبيه حالته هو الغراب؛ لذلك يتحاور معه كثيرًا، ويبين من خلاله مدى قلة حيلته أمام حزنه، وذلك مثل قوله في ألم فراق عبلة:[42]

يَا عَبلُ كَمْ يَشجِي فُؤَادِي بِالنَّوى وَيَروعُني صَوتُ الغُرَابِ الأسودِ

وقوله:[43]

وَعَـادَنِـي غُـرَابُ الـبَـيـنِ حَتَّى كَـأَنِّـي قَـد قَـتَـلـتُ لَـه قَـتِـيـلَا

ومثل هذا قال:[44]

إِذَا صَـاحَ الـغُـرَابُ بِهِ شَجَانِي وَأَجـرَى أدمُـعِـي مِـثـلَ الـلآلِـي

وكذلك يكون الغراب حاضرًا أولًا حين يريد أن يشير إلى فراغ منزل، مثل حضوره عند الحزن:[45]

وَلا دِيـــارُهُـــم بِالأَهـــلِ آنِـــسَـــةٌ يَأوِي الغُرابُ بِهَا والذِّئبُ وَالنَّمِرُ

وفي هذا أيضًا قوله:[46]

ظَـــعَـــنَ الَّذينَ فُراقهُم أَتَوَقَّـعُ وَجَـرَى بِـبَـيـنِـهِمُ الغُرَابُ الأَسوَدُ

أكثرُ بيتٍ دلَّ على أنَّ الغرابَ إشارةٌ إليه هو الذي قاله في حبه لعبلة؛ حيث إنه يسأل الغراب عنها فيبدو له أن بالغراب ما به من الضياع في الحب:[47]

أُسـائِـلُـهُ عَـــن عَـبـلَـــةَ فَأَجَابَنِي غُـــرابٌ بِـهِ مـا بـــي مِـــنَ الهَيَمَانِ

وكما يعبر عن نفسه عن طريق الغراب يفعل ذلك بذكره عتمة الليل، فهو إما يذكر هذا اللون دلالة على القوة أو دلالة على حزن، لعل ذلك بسبب سيره على ما هو متعارف عليه بين الشعراء مِن التعبير عن الحزن عن طريق ذكر شدة سواد الليل، أو أنَّه إشارةٌ إلى نفسه بما فيه من غصة الفراق؛ إذ يقول في بيتٍ من إحدى قصائد الرثاء:[48]

لَقَد كَانَ يَومًا أَسوَدَ اللَّيلِ عَابِسًا يَـخَـافُ بِـلاهُ طـارِقٌ الـحَـــدَثـــانِ

وعند حديثه عن عبلة يقارن حسنها بسواد الليل، فهو دومًا حين يخاطبها ينسب إليها البياض، ويكلمها باستحياءٍ من لونه؛ لهذا السبب يقارن بين السواد والبياض إظهارًا لجمالها، وحبه لها:[49]

أَشارَت إِلَيهَا الشَّمسُ عِندَ غُروبِهَا تَقُولُ إِذَا اسوَدَّ الدُّجى فاطلُعِي بَعدِي

ولأن اسمها يعني الجبل الأبيض[50]، إذًا هو يرى في هذا اللون جمالًا حين يخاطبها، فيسعى أن يرضيها هي فقط بلونه، ومن سبله في ذلك قوله جامعًا بينها وبين سواد العين، وما هو أسود في القلب:[51]

يَا عَبلُ أَنتِ سَوَادُ القَلبِ فَاحتَكِمي فِي مُـهـجَـتِـي واعـدُلـي يَا غَايَةَ الأَمَلِ

كما أنه استخدم اللون الأسود على سبيل الفخر بأصله من والدته:[52]

عَجُوزٌ مِن بَنِي حَامِ بِن نوحٍ كَأَنَّ جَبِينَها حَجَرُ المَقَامِ

وينسب نفسه إلى والدته واصفًا إياها، قائلًا:[53]

وَأَنا ابنُ سَودَاءِ الجَبِينِ كَأَنَّهَا ضَبعٌ تَرَعرَعَ فِي رُسُومِ المَنزِلِ

- **أبياته في البياض:**

أبياته في البياض أقل من السواد، فما إتيانه بهذا اللون إلا وصفًا لخصاله، مخاطبًا بعض الذين عابوا عليه لونه؛ فلا يمكن أن يتخيل من يعيب السواد أنه من الممكن أن يوضع في المدح، وإن أمكن ذلك، لكنه دومًا ما يجمع بين ذكره لبياض خصاله، وسواد بشرته؛ لعله يريد لفت نظرهم في كل مرة أن من يُمدح ببياض فعاله هو الأسودُ الذي ذممتموه، وما المذمَّةُ إلا لرفضهم إياه، كذلك استخدم الأبيض في الحديث عن السيوف، لكن أكثر ما استُخدِمَ فيه هو وصف عبلة تشبيهًا لها بالقمر، أو اللؤلؤ، وما هو أبيض بشكل عام، ومن أبياته التي قالها في وصف بياض أخلاقه:[54]

تُـعِـيـرُنِـي الـعِدا بِسَوادِ جِلدِي وَبِيضٌ خَصائِلي تَمحو السَّوادا

أيضًا قوله:[55]

سَوَادِي بَيَاضٌ حِينَ تَبدُو شَمَائِلي وَفِعلِي عَلى الأنسَابِ يَزهو وَيفخَرُ

وعلى هذا المنوال قال:[56]

وَإِن كَانَ لَونِي أسودًا فَخَصَائِلي بَيَاضٌ وَمِن كَفِّي يُستَنزَلُ القَطرُ

كذلك قوله:[57]

شَـبِـيـــهُ الـلَّـــيـــلِ لَونِي غَيـرَ أَنِّـي بِـفِـعـلِـي مِن بَيَاضِ الصُّبحِ أَسنَى

يسود في أبيات عنترة جعل اللون الأبيض في الأمور التي تدل على الرقة، سواء رقة الحب أو وصف عبلة، أو حتى المدح، إلا أنَّه في بعض الأبيات جعلها تدل على الحدة والقوة عن طريق استخدام (الأبيض) اسمًا للسيف دون بقية أسمائه، دلالة على أن في أرض المعركة حاجةٌ لتعاون هذين اللونين معًا لإبراز قوة المقاتل الحقيقية، وهكذا يبرز عنترة قوته، مثل قوله:[58]

طَفَاهَا أَسوَدٌ مِن آلِ عَبسٍ بِأبيَضَ صَارِمٍ حَسَنِ الصِّقالِ

ومن الأبيات التي ذكر فيها السيوف بهذه اللفظة قوله:[59]

وَتَلمَعُ فِيهَا البِيضُ مِن كُلِّ جَانِبٍ كَلَمعِ البُرُوقِ في ظَلامِ الغَيَاهِبِ

كذلك قوله:[60]

لَقَد عَادَيتَ يا ابنَ العَمِّ لَيثًا شُجَاعًا لا يَمَلُّ مِنَ الطِّرَادِ

يَرُدُّ جَوَابَهُ قَولًا وفِعلًا بِبيضِ الهِندِ والسُّمرِ الصِّعَادِ

كما قال:[61]

تَرَى بِيضًا تُشَعشَعُ في لَظَاها قَدِ التَصَقَت بِأَعضَادِ الزُّنُودِ

وفي ذلك أيضًا:[62]

وَبَوَارِقُ البِيضِ الرِّقَاقِ لَوَامِعٌ في عَارِضٍ مِثل الغَمامِ المُرَعَّدِ

أما من الأبيات التي ذكر فيها البياض على سبيل الدلالة على العجز قوله حزنًا على أسر ولديه:[63]

شَابَ رَأسِي فَصَارَ أبيَضَ اللَّونِ بَعدَمَا كَانَ حَالِكًا بالسَّوَادِ

يذكر كذلك اللون الأبيض في أبيات المدح إما صراحة أو تضمينًا، وأغلبها تضمين، يشير من خلالها إلى محبوبته، وإلى الممدوح، وأحيانًا قليلة إلى نفسه مثل قوله في أحد أبياته الشهيرة:[64]

سَيَذكُرُني قَومِي إذَا الخَيلُ أَقبَلَت وَفي اللَّيلَةِ الظَّلمَاءِ يُفتَقَدُ البَدرُ

فكما في الليل المظلم يكون القمر هو مرشد المسافر عند حاجته، كذلك عنترة هو منقذ قومه في غياهب المعركةِ، وفي وصفه لجمال عبلة، متحدثًا عن اشتعال نار الجوى في قلبه واصفًا من كان سببه (وهي محبوبته) يقول:[65]

أَضرَمَتْها بَيضَاءُ تَهتَزُّ كالغُصنِ إذَا مَا انثَنَى بِمَرِّ النَّسِيمِ

وكذلك يشبهها بلؤلؤة مشكَّلةٍ بهيئة جميلة في عاج؛ أي بياض وبريقٌ فوق بياض:[66]

مِن كُلِّ فَائِقَةِ الجَمَالِ كَدُميَةٍ مِن لُؤلُؤٍ قَد صوّرَت فِي عَاجِ

ومن وصفه لعبلة أيضًا الإكثار من تشبيهها بالقمر، فكررها في هذه الأبيات مرة كبدر وثانية هلال:[67]

لَعُوبٌ بِألبَابِ الرِّجالِ كَأَنَّهَا إذا أَسفَرَت بَدرٌ بَدَا في المَحَاشِدِ

مُنَعَّمَةُ الأَطرَافِ خَودٌ كَأَنَّها هِلالٌ على غُصنٍ مِنَ البَانِ مائِدِ

ومن أوجه تشبيهه إياها بالقمر:[68]

وَلَولا أَنِّي أَخلُو بِنَفسِي وَأطفِي بِالدُّمُوعِ جَوَى غَرَامِي

لَمِتُّ أسًى وَلَم أشكُو لأَنِّي أَغارُ عَلَيكِ يا بدرَ التَّمامِ

كذلك قوله:[69]

وَقَالَ لها البَدرُ المُنيرُ أَلا اسفِري فإنَّكِ مِثلي في الكَمَالِ وَفي السَّعدِ

ومن أوجه مدحه لغيرها حديثه عن زوجة أبيه التي اتهمته ظلمًا، وعندما انهال والده عليه بالضرب دافعت عنه، فقال:[70]

كَأَنَّها عِندما أَرخَت ذَوائبَها بَدرٌ بَدَا وَظَلامُ اللَّيلِ مُعتَكِرُ

وفي أبياتٍ من قصيدة أخرى يمدح خلالها كسرى:[71]

يَا قِبلَةَ القُصَّادِ يا تَاجَ العُلا يَا بَدرَ هَذَا العَصرِ في كيوانِهِ

خلاصة القول هي:

1. الأبيات التي أتت في اللونين الأسود والأبيض غلبت على كافة قصائد عنترة.

2. طغى حديثه عن اللون الأسود على الأبيض؛ مما يدل على معاناته من ظلم بعض من أهله له، فيريد من خلالها أن يثبت لهم أن الأسود ليس عيبًا فيه، تأكيدًا لنفسه أولًا وللآخرين ثانيًا.

3. أكثر من مدح السواد؛ لأنه أراد أن يجعل محبوبته تحبه كما هو؛ إذ لا يخشى من كلام الناس قدر خشيته من أثر هذا الكلام على نفس عبلة تجاهه.

المبحث الثاني

ثنائية الموت والحياة

وردت أبياتٌ عديدة تحدَّث فيها عنترة عن الموت والحياة، لكن بطرق مختلفة، فتارة يخشى الموت ويرغب بالحياة لكن لأسباب معينة ستُذكر في هذا المبحث، وتارة أخرى يذكر شوقه للموت في بطولاته، أو أنه والموت شيء واحد إشارة إلى قوته،وأنَّ الموت يهابه لا العكس.

- **أبياته في الموت:**

يسعى عنترة في أبياته إلى إظهار مدى بأسه في المعارك عن طريق فخره بنفسه؛ ليلفت نظر عبلة له، ولهذا الجانب منه، فيجعل أحيانًا نفسه هو الموت، وأحيانًا أخرى أن الموت يخشاه، من ذلك قوله إنَّ الموت لو أُنسِنَ لهاب عنترة:[72]

وَلَو أنَّ لِلمَوتِ شَخصًا يُرَى لَـرَوَّعـتُـهُ وَلَأكَـثَـرتُ رُعـبَـهُ

وهكذا في جعل الموت يخشى منه هو، وليس العكس:[73]

إنَّ المَنيَّةَ لو تَمثَّلَ شَخصُها لِي في العَجاجِ طَعَنتُها في الأَوَّلِ

كما يقول أيضًا جاعلًا نفسه الموتَ ترهيبًا لأعدائه، موضِّحًا لهم أنه أشد قسوة من الموت، فالموت يدركُ شخصًا ويَذر آخر، أما عنترة فلن يترك منهم أحدًا:[74]

أَنَـا الـمـوتُ إلَّا أَنِّـي غَيرُ صابِرٍ على أَنفُسِ الأَبطالِ والمَوتُ يَصبِرُ

ومن أوجه عدم مهابته الموت قوله:[75]

سَلُوا صُروفَ هذا الدَّهرِ كَم شَنَّ غَارَةً فَـفَـرَّجـتُـهـا والـمـوتُ فـيـهـا مُـشـمِّرُ

وقوله أيضًا:[76]

وَلَكَم وَرَدتُ مِنَ المَوتِ أَعظَمَ مَوردٍ وَصَدَرتُ عَنهُ فَكانَ أعظَمَ مَصدَرِ

وهكذا يخبر عبلة أنَّه هو أساس الموت، وأنه من الموت، ويعود إلى تشخيص الموت ليبرهن لها أنه من شدته لو كان الموت إنسانًا لسجد لعنترة قائلًا:[77]

إنَّ الـمـنـيَّـةَ يـا عَبلَةَ دَوحَةٌ وَأَنـا وَرِمـحي أَصـلُـها وَفـرعُها

يا عَبلُ لو أنَّ المَنِيَّة صُوِّرَت لَـغـدا إلَـيَّ سُجودُها وَرُكوعُها

ومن تشبيه نفسه بالموت جاعلًا نفسه أقسى منه؛ لأنَّ سيفه يسبق القتل، قوله:[78]

وَأَنا المَنِيَّةُ حِينَ تَشتَجِرُ القَنا وَالطَّعنُ مِنِّي سَابِقُ الآجَالِ

وقوله:[79]

وَأَنا المَنيَّةُ وابنُ كُلّ مَنيَّةٍ وسوادُ جِلدي ثَوبُها ورِدَاها

فقد جعل هيبة الموت الحقيقية في لون جِلدِه الذي عِيبَ بسببه، كما يبرهن عدم خشيته من الموت بقوله:[80]

أَنَا العَبدُ الَّذِي يَلقَى المَنَايا غَدَاةَ الرَّوعِ لا يَخشَى المَحَاقا

والأمر نفسه في قوله:[81]

وإِذَا المَوتُ بَدَا في جَحفَلٍ فَدَعُونِي لِلِقاءِ الجَحفَلِ

كذلك قوله:[82]

دَعُوا المَوتَ يَأتِيني على أيِّ صورَةٍ إِنّـــي لأُريـــهِ مَـــوقِـفِـــي وطِـعَـــاني

يشخِّص الموت مجدَّدًا في جعل عنترة نفسه يتحكم به، وفيه وجه من أوجه جعل الموت يهابه:[83]

وَما دَانيتُ شَخصَ المَوتِ إِلّا كَمَا يَدنو الشُّجاعُ مِنَ الجبانِ

وأنَّ الموتَ طَوعُ يَدي إذا ما وُصِـلَتْ بَـنَانُـها بِالـهُـنـدوَانِ

ويشتاق إلى الموت عندما تنهال عليه المصائب فيقول:[84]

أَشتَاقُ كَاسَاتِ المَنُونِ إِذَا صَفَت وَدَارَت على رَأسِي سِهَامُ المَصائِبِ

وَيُـطـرِبُـنـي وَالـخَـيلُ تَـعـثِرُ بِالقَنَا حَـدَاةَ الـمـنايـا وارتـهـاجَ المواكِبِ

ويفضل الموتَ على أن يحيا حياة عادية، أو أن يموت ميتة عادية، فيقول:[85]

دَعوني فِي الحَياةِ أَموتُ عَزيزًا فَمَوتُ العِزِّ خيرٌ مِن حَـيـاتي

كذلك يفضل الموتَ في أرض المعركة بل يدعو إليه بقوله:[86]

لا تَـخـشَ الـمـنيَّةَ والقَيتَّهـا وَدَافِع ما استَطَعتَ لها دفاعا

ولا تَـخـتَـر فِرَاشًا مِن حريرٍ ولا تَـبـكِ الـمـنـازِلَ والبِقاعا

وهكذا في رفضه أيضًا للموت على فراش المرض بين أهله مقارنة بموته في المعارك:[87]

فَيا رَبِّ لا تَجعَلْ حَياتِي مَذَمَّةً وَلا مَوتِي بَينَ النِّسَاءِ الـنَّـوائـحِ

وَلَكِن قَتيلًا يَدرُجُ الطَّيرُ حَولَهُ وتَشرَبُ غِربَانُ الفلا مِن جَوانِحي

غالبًا أتى تفضيله للموت في ضوء رفضه للميتة العادية، ورغبته في أن يموت في المعارك، إلا أنَّه في بعض الأبيات يبين ألَّا حياة بعد عبلة، إذًا تفضيله للموت هنا نابعٌ من خوفه من الحياة بعد فراق عبلة، ومن ذلك قوله:[88]

وَإِن عِشتُ مِن بَعدِ الفِرَاقِ فَما أَنَا كـمـا ادَّعـي أَنِّـي بِـعَـبلَةَ مُغرَمُ

ومثل ذلك قوله:[89]

فالقَتلُ لِي مِن بَعدِ عَبلَةَ رَاحَةٌ وَالعَيشُ بَعدَ فُرَاقِها مَنكُودُ

إلا أنَّه ما زال يبين أنه يأبى الميتة العادية بقوله (القتل)، وفي بيت آخر يخبرها أنَّه لا يخشى الموتَ دفاعًا عنها بل سيواجه كل موتٍ في سبيل حمايتها قائلًا:[90]

وَمَا هَالَني يا عَبلَ فيكِ مَهالِكٌ ولا رَاعَني هَولُ الكمِيِّ المُمارِسِ

- **أبياته في الحياة:**

أبياته عن الحياة كانت الأقل؛ إذ إنه دومًا ما يرغب ببيان قوته، ويرى أنَّ حب الحياة من الضعف، إلا أنَّه في بعض أبياته يذكر خشيته من الموت، لأسباب عدة منها إنْ لم يُنجز شيئًا أراده، أو أنْ يفارق عبلة ومن يحب، ولم يذكر الحياة صراحة إلا في موضعٍ واحدٍ، وكان في نسبته لغيره؛ حيث لم ينسب الحياة لنفسه أبدًا:[91]

فَهُناكَ لا ألوي عَلى مَن لامَنِي خَوفَ المَماتِ وَفُرقَةَ الأحياءِ

أما بقية رفضه للموت فجاء بذكر المنية، مثل قوله:[92]

وَقَد كُنتُ أخشَى أن أَموتَ وَلَم تَقُم قَرَائبُ عَمروٍ وَسطَ نَوحٍ مُسَلِّبِ

ومثل ذلك قوله:[93]

وَلَقَد خَشِيتُ بِأَن أَموتَ وَلَم تَكُن لِلحَربِ دائرَةٌ على ابنَي ضَمضَمِ

وكذلك يتحدث عن الحياة أنها نفيسة لكن لا بد لها من الزوال فيقول:[94]

وَعَرَفتُ أنَّ مَنيَّتي إن تَأتِني لا يُنجِني مِنهَا الفِرارُ الأسرَعُ

لذلك وجب أن يقضيها المرء بما يجلب له الفخر:[95]

لا بُدَّ للعُمُرِ النَّفيسِ مِنَ الفَنَا فاصرِف زَمَانَكَ في الأَعَزِّ الأفخَرِ

ويذكر في بيتٍ آخر أنَّ رغبته في الحياة، وعدم الموت تكمن في وجود عبلة في حياته، فيقول:[96]

يا رِيحُ لولا أنَّ فيكِ بَقيَّةٌ من طِيبِ عَبلَةَ مِتُّ قَبلَ لِقاكِ

وتلخيصًا لما سبق يتبين:

1. إنَّ عنترة يفضل الموت على الحياة في كل أشكالها.

2. رغبة عنترة بالحياة تكون لهدف معين لا أكثر؛ لعله لهذا السبب ابتعد عن ذكر اللفظة صراحة، كونه لا يرغب بها بشكل قطعي وكامل إنما في أجزاء بسيطة من حياته، ففضل أن يقول (أخشى) على أن يذكرها؛ باعتبار أن خشية الموت بشكلٍ عام أمر طبيعي إلا أنَّ الرغبة في الحياة – من وجهة نظره – منافية لما يريد أن يصوّره عن نفسه.

المبحث الثالث

ثنائية القوة والضعف

عُرف عنترة بقوته، وضراوته في المعارك بل يفتخر بهذه القوة؛ إذ كانت الأبيات في هذا الموضوع كثيرة ومتنوعة تكاد لا تخلو قصيدة منها، سواء جاء هذا الفخر صراحة أو مبطَّنًا، وذلك لما يعانيه – على الرغم من قوة شخصيته – من ألم حبه غير المُحَقَّق لعبلة، لكن من ناحية أخرى يجدر الإشارة إلى أن عنترة كان دومًا يجعل عبلة استثناءً، فكما ورد في المباحث السابقة إن أراد عنترة أن يمدح اللون الأبيض سيكون من أجل عبلة، وينسبه لها، وإن رغب بالحياة فلمحبوبته، أما هنا ضعفه يكون أمام عبلة وحبها فقط بل يخبرها أنه القوي في المعارك، المُهاب في ساحات الوغى إلا أنَّ هواها في قلبه قد أضعفه.

- **أبياته في القوة:**

عُرف عن عنترة فخره بشجاعته وقوته، فملاحظٌ على قصائده سيادة غرض الفخر، لكنه فخرٌ أُريد به أمران: الأول – لفت انتباه عبلة؛ لتعلم أنَّه ليس شخصًا عاديًّا، والثاني – تخويف أعدائه، وتنبيههم بعدم الاستهانة به عن طريق إخبارهم عما فعله في معارك سابقة، كما أنه لا يكتفي فقط بالحديث عن قوته في أرض المعركة إنما أيضًا في صبره، وتحمله الصعاب، مثل قوله في صباه:[97]

فَلأُغضِبَنَّ عَوَاذِلي وَحَوَاسِدي وَلَأَصبِرَنَّ عَلَى قَلَى وَجَوَاءِ

ومرة خرج عنترة من قومه، وهو غاضبٌ منهم فأشار في أبياته إلى شدة صبره وقوته في آن واحد:[98]

خُلِقتُ مِنَ الحَديدِ أَشَدَّ قَلبًا وَقَد بَلّا الحَديدُ وَمَا بَلِيتُ

فقلبه في صلابته مثل الحديد بل أقوى، إن أصاب الحديدَ ضُرٌّ، فقلبه لا يصيبه الضرر، وعلى هذا المنوال تمامًا صاغَ قوله:[99]

خُلِقتُ مِنَ الجِبالِ أَشدَّ قَلبًا وَقد تَفنَى الجِبالُ وَلَستُ أفنَى

كذلك في تشبيه نفسه بالصخر والجبال قائلًا:[100]

إِنَّ لي هِمَّةٌ أَشَدُّ مِنَ الصَّخرِ وَأَقوى مِن رَاسياتِ الجبالِ

وهو يخبر عبلة كذلك بأن تسأل كل من أرادت عنه؛ ليخبروها عن عزمه وشدة بأسه قائلًا:[101]

سَلِيهُم يُخبِروكِ بِأَنَّ عَزمِي أَقَامَ بِرَبعِ أعداكِ النَّواعي

كما أنه يريد من محبوبته أن تنظر إليه في المعارك كيف يهزم العدو، وينجد الصديق، وذلك في بيتٍ من قصيدة نظمها حين ذهب لنجدة صديقٍ له:[102]

فَلَو أَنَّ عَينَيكِ يَومَ اللِّقاءِ تَرَى مَوقِفِي زِدتِ لي في المَحبَّهْ

يُفيضُ سِنَانِي دِمَاءُ النُّحورِ وَرُمحِي يَشُكُّ مَعَ الدِّرعِ قَلبَهْ

ويقول لعبلة أيضًا:[103]

سَائِلِي يا عُبَيلَ عَنِّي خَبِيرًا وَشُجَاعًا قد شيَّبَتهُ الحُروبُ

فَسَيُنبِيكِ أَنَّ فِي حَدِّ سَيفِي مَلَكُ المَوتِ حَاضِرٌ لا يَغيبُ

ويريدُ لها أن ترى بنفسها قوته في قوله:[104]

فَبَادِري وَانظُري طَعنًا إِذَا نَظَرَتْ عَينُ الوَليدِ إِلَيهِ شَابَ وَهوَ صَبِي

فحتى الأطفال يعرفون ما يقدر عنترة على فعله، وسيصيبهم رعب شديدٌ من هول ما سيرونه إن نظروا إلى قتاله، وبعد أن ترى قوته يطلب منها أن تسأل أسلحته عمن قاتل عنترة؛ ليبين لها أنه لا يقاتل ضعاف النفوس، إنما يقاتل كلّ ضارٍ، وكل ذي مكانة متغلّبًا عليهم بدقّته:[105]

وَسَائِلي السَّيفَ عَنِّي هَل ضَرَبتُ بِهِ يَومَ الكَرِيهَةِ إِلَّا هَامَةَ المَلِكِ

وَسَائِلي الرُّمحَ هَل طَعَنتُ بِهِ إِلَّا المُدَرَّعَ بَينَ النَّحرِ والحَنَكِ

يقول مجددًا وهو غاضبٌ من قومه، ومخاطبًا عبلة في الظاهر؛ ليبدو موجّهًا لها، لكن في الحقيقة يريد من قومه أن يسمعوا، ويتذكروا فعاله:[106]

يُخبِرُكِ بَدرُ بن عَمروٍ أَنَّني بَطَلٌ أَلقَى الجُيوشَ بِقَلبٍ قُدَّ مِن جَبَلِ

قَاتَلتُ فُرسَانَهَم حَتَّى مَضَوا فِرَقًا وَالطَّعنُ فِي إِثرِهِم أمضَى مِنَ الأَجَلِ

ومن تفاخره في ساحات الوغى قوله:[107]

مَا زِلتُ أَلقَى صُدورَ الخَيلِ مُندَفِقًا بالطَّعنِ حَتَّى يَضِجَّ السَّرجُ واللَّبَبُ

فالعَميُ لَو كَانَ في أجفَانِهم نَظَروا والخُرسُ لو كَانَ في أفواهِهم خَطَبوا

كذلك يقول مُهدِّدًا:[108]

فَوَيلٌ لِكِسرى إِن حَلَلتُ بِأَرضِهِ وَوَيلٌ لِجَيشِ الفُرسِ حِينَ أُعَجعِجُ

وحينما أُسِر ولدا عنترة أراد لهما الخلاص، إلا أنه لم يقدر على فعل شيء؛ مما أصابه بحزن شديد، فنظم عدة أبيات من خلالها وصف حزنه، وقلّة حيلته، كذلك وصف ما كان عليه من قوة سابقًا قائلًا:[109]

وَلَقيتُ الأَبطَالَ في كُلِّ حَربٍ وهَزَمتُ الرِّجالَ في كُلِّ وادِ

وفي أبياتٍ أخرى يصف شدة خوف أشدَّاء الأعداء منه:[110]

وَنَشَرتُ رَايَاتِ المَذَلَّةِ فَوقَهُم وَقَسَمتُ سَلبَهم لِكُلّ غَضَنفَرِ

كما يبين ذلك أيضًا بقوله:[111]

إذَا الأَبطَالُ فَرَّت خَوفَ بَأسِي تَــرى الأَقــطَارَ بَاعًا أو ذِراعًا

وكذلك قال في وصف فرار أعدائه منه:[112]

وَآخَرٌ هَارِبٌ مِن هَولِ شَخصِي وَقَــد أَجــرَى دُمــوعَ الــمُـقلَتَينِ

ستضيق الأرض بما رَحُبت على كل من يهرب من عنترة؛ لأنه سيلحق بهم لا محالة، فلا مفرَّ منه، ويقول تخويفًا عند مبارزته لشخص يدعى (مسحل بن طراق الكندي) أراد أن يخطب عبلة، إلا أنَّ شرط والدها كان أنْ يقومَ بقتل عنترة:[113]

أَنَــا الــبَــطَــلُ الَّــذي خُــبــيّــرتَ عَنهُ وَذِكــرِي شَــاعَ فــي كُــلّ الآفــاقِ

إذا افــتَــخَــرَ الجَبانُ بِــبَــذلِ مَــالٍ فَــفَــخــري بــالمُـضـمَّــرَةِ الــعِــتَــاقِ

وَإن طَــعَــنَ الــفَوَارِسُ صَدرَ خَصــمٍ فَــطَــعــنِــي فــي الــنُّحــورِ وفــي التَّراقِي

ويقول أيضًا:[114]

وَفَرَّقتُ الكَتائِبَ عندَ ضَربٍ تَــخِــرُّ لَــهُ صَــنَادِيــدُ الــرِّجــالِ

ومن أوجه فخره تشبيه أعدائه الذين يهزمهم بالأسود، والحيوانات المفترسة، لكن أمامه تكون ضعيفة، فيقول:[115]

وَمِن عَجَبِي أَصيدُ الأَسَدَ قَهرًا وَأَفتَرِسُ الضَّواري كَــالــهَــوامِ

ويتفاخر أيضًا بقوله:[116]

وَفَرَّقتُ جَيشًا كَانَ في جَنَباتِهِ دَمادِمُ رَعدٍ تَحتَ بَرقِ الصَّوارِمِ

ويصف تغلبه على أعدائه بقوله:[117]

وَقَهَرتُ أَبطَالَ الوَغَى حتَّى غَدَوا جَرحى وَقَتلى مِن ضِرَابِ حُسامِي

كذلك يخبر عبلة أنَّها لو سألت أشدَّ أعدائه قوةً عنه لأخبروها بِفعاله، كما يبين لها عدم خوفه من أعدائه مهما بلغ عددهم:[118]

يا عَــبلَ إنّي فـي الكَرِيهَةِ ضَيــغَــمٌ شَــــرسٌ إذا ما الطَّعنُ شَقَّ جِباها

وَسَــلِ الــفَــوارِسَ يــخبروكِ بِهمَّتي وَمــواقِــفي في الحَربِ حينَ أَطَاها

يــــا عَبلَ لــو أَنّــي لَقيتُ كَتيبَــةً سَــبــعــيــنَ أَلــفًــا مــا رَهِبتُ لِقاها

ومن أوجه ذكره لقوته حديثه عن ترجي الأعداء له، أو تحذير بعضهم بعضًا منه، ومثال ذلك قوله في معلقته:[119]

وَلَقَد شَفَا نَفسِي وأَبرَأَ سُقمَهَا قِيلُ الفوَارِسِ وَيكَ عَنتَرَ أَقدِمِ

ومثل ذلك قوله في حرب كانت بينهم وبين العجم:[120]

وَكَم مِن سَيّدٍ أَضحَى بِسَيفِي خَضيبَ الرَّاحَتينِ بِغَيرِ حِنَّا

وَحِجَارٌ رَأَت طَعنِــي فَنادَت تَــأَنَّــى يا ابنَ شَــدَّادٍ تَأَنَّى

ويقول في هزيمته لقائد جيش العدو منذرًا إياهم:[121]

وَكَــانَ زَعِــيــمُهم إذ ذاكَ لَينًا هِــــزبِــرًا لا يُــبــالــي بــالـرَّزيَّــةْ

فَخَلِفناهُ وَسَطَ القاعِ مُلقى وَهــا أنــا طَــالِبٌ قَتلَ البَقيَّةْ

- **أبياته في الضعف:**

ضعف عنترة كما يصف لم يكن في المعارك قط، إنما أمام عبلة فحسب، هو يريد أن يظهر لها أنَّ هذا الفارس القوي في أرض الوغى قد آلمه هواها؛ لبعده عنها، فينبئها مثلًا بعدم قدرته على الصبر بعدما كان يفخر بهذه الخصلة في نفسه، كما ويخبرها أنه السقيم في حبها، وأنَّ وجودها هو حقيقة قوته، وبعد أنْ شبَّه قلبه بالحديد والجبال يخبرها أنَّ قلبه ضعيفٌ؛ علَّها ترأف بحاله، ومن قوله في غرام عبلة يوضح كم أنَّ هذا الغرام المستحيل قد أذاه:[122]

فَاغتَالَني سَقَمِي الَّذي فِي بَاطِنِي أَخفَيتُهُ فَأَذَاعَهُ الإِخفَاءُ

وقال يصفُ حاله ويشكو زمانه:[123]

إنَّ طَيفَ الخَيالِ يا عَبلَ يَشفِي وَيُدَاوِي بِهِ فُؤادِيَ الكَئِيبُ

وَهَلاكِي في الحُبِّ أَهوَنُ عِندي مِن حَيَاتِي إذا جَفَانِي الحَبِيبُ

منعت قبيلةُ عبلة عنترةَ من رؤيتها وأبعدوه عنها؛ لهذا هو يشكو من قسوتهم عليه، فيخبرها أنَّه مجرد أنْ يمرَّ خيالها أمامه سواء في حلمه، أو يلمحها، يصيِّره لا يشفيه تمامًا لكن يساعده على التحمل أكثر، وإنه يفضِّل الموتَ على أنْ يعيش دون أن يكون له اتِّصالٌ معها، ومن ذلك أيضًا قوله يشكي لها جور قومه عليه:[124]

وَلَيتَ خَيالًا مِنكِ يا عَبلَ طَارِقًا يَرَى فَيضَ جِسمي بِالدُّموعِ السَّواكِبِ

ومثل ذلك قوله في شوقه لعبلة، مخبرًا إياها أنَّ ما يصيِّره على بعده عنها هو خيالها:[125]

يا عَبلَ لَولا الخَيالُ يطرِقُنِي قَضَيتُ لَيلي بالنَّوحِ والسَّهَرِ

ويخاطب نفسه متعجبًا من شدة ألم فراق عبلة وتأثيره عليه بعدما ودَّعها ذاهبًا لمعركة ضد عجم، مظهرًا ما سببته لوعته له:[126]

أَشَاقَكَ مِن عَبلَ الخَيالُ المُبَهَّجُ فَقَلبُكَ فيهِ لاعِجٌ يَتَوَهَّجُ

فَقُدتَ الَّتي بَانَتْ فَبِتَّ مُعذَّبًا وَتِلكَ احتَواها لِلبينِ هَودَجُ

يُسائل نفسه سؤالًا استنكاريًّا: (أعذَّبك وأتعبك رؤيتك خيال عبلة؟)، فعلى الرغم أنه ذاهبٌ إلى معركة إلا أنَّه أراد أن يوضح لمحبوبته حالته من البين؛ إذ بعد فراقها قضى وقته معذَّبًا في اشتياقه لها بينما ينظر إليها تغادر، وفي بيتٍ آخر قاله عندما أُخذت عبلة بعيدًا عنه؛ ليمنعه والدها من رؤيتها:[127]

وَهَيهَاتَ يَخفَى مَا أُكِنُّ مِنَ الهَوَى وَثَوبُ سِقَامِي كُلَّ يَومٍ يُجدَّدُ

وفي بيتٍ من أبياتٍ نظمها عندما أُسِرَ أبناؤه يشتكي فيها لعبلة:[128]

وَيحَ هذا الزَّمانِ كَيفَ رَمَانِي بِسِهَامٍ أَصَابَت صَمِيمَ فُؤَادِي

ويرعب عنترة الذي لا يَهابُ بل يُهابُ صوتُ الغراب؛ لِما أصاب قلبه من ضعفٍ في الهوى:[129]

يا عَبلَ كَم يُشجِى فؤادِي بالنَّوَى وَيَروعُنِي صَوتُ الغُرَابِ الأَسوَدِ

ويقول أيضًا واصفًا جمالها، وأثر جمال عينيها على قلبه:[130]

رَمَت قَلبِي عُبَيلَةُ مِن لَواحِظِها بِكُلِّ سَهمٍ غَرِيقِ النَّزعِ في الحَوَرِ

كذلك يخاطبها طالبًا إياها أن ترأف بحاله، ولا تهجره؛ فرؤيتها هي التي تعطيه القدرة على مواجهة الصعاب قائلًا:[131]

يا عَبلَ حُبُّكِ سَالِبٌ أَلبَابَنا وَعُقُولَنا فَتَعَطَّفي وَلا تَهجُري

يا عَبلَ لَولا أنْ أَرَاكِ بِناظِرِي مَا كُنتُ أَلقَى كُلَّ صَعبٍ مُنكَرِ

ذهبَ عنترة مع الأمير شاس بن زهير، وفي ليلة من ليالي سفره لمح عنترة طيف عبلة؛ لشدة اشتياقه لها، فنظم أبياتٍ يشتكي فيها لرفيق سفره ما لاقه من ألم الاشتياق بعدما راوده هذا الخيال قائلًا:[132]

يا شَاسُ جِرني مِن غَرَامٍ قَاتِلٍ أَبَدًا أَزِيدُ فيهِ غَرَامًا مُسعِرَا

يا شَاسُ لَولا أنَّ سُلطانَ الهَوى مَـــاضِـــي العَزيمَة ما تَمَلَّكَ عَنتَرَةْ

وبعد أن أعتقه والده نظم أبياتًا يُخبر فيها عبلة عن قوته إلا أنَّ سببه الوحيد في قبول هذا الذل بين أهله هو حبه لها:[133]

وَلَـــولا حُـــبُّ عَـبـلَـــةَ في فُؤَادِي مُـــقـــيـــمٌ مـــا رَعَـيـــتُ لَـهُـــم جِمَالَا

عَتِبتُ الدَّهرَ كَيفَ يَذِلُّ مِثلي وَلـــــي عَـــــزمٌ أَقُـــدُّ بِـــــهِ الـجِـبـــالَا

وبعد أن قُتِلَ مسحلًا* نظم قصيدة يتحدث فيها عنترة عن ضعفه أمام عبلة، فهو الذي هزم خصمه إلا أنّه يعلم عدم تمكنه من الزواج من محبوبته، فيقول:[134]

ولا أَبـــقَـــى لِـــيَ الـــهُـجـــرَانُ صَبـــرًا لِـــكـــي أَلـــقَـــى الـمـنَـــازِلَ والطُّلُولا

أَلِفتُ السَّقَمَ حَتَّى صَارَ جِسمِي إذا فَـــــقَـــدَ الـضَّـــنَـــى أَضنَى عَلِيلا

كما قال في اشتياقه لعبلة راجيًا إياها أن تخاطبه؛ لتريح قلبه:[135]

بِحَقِّ أَبِيكِ دَاوِي جُرحَ قَلبِي وَرَوِّحِ نَـــارَ سِـــرِّي بِالمَقَالِ

نَظَمَ أبياتًا حينما غضب من قومه يخبر من خلالها محبوبته عن عدم اهتمامه أو اشتياقه لقومه، ولكن هي من ستضعفه من اشتياقه لها، وأنَّ دمعه لا يهطل على فراقٍ إلا فراقها، بل يخاف فراقها كما يخاف أعداؤه منه، فيقول في ذلك:[136]

يَـا بَـيـــنُ رَوَّعـــتَ قَـلـبـــي بِالفِـــرَاقِ وَما أَبكِـي لِـــفُرقَةِ أصحَـــابٍ ولا طَـــلَـــلِ

بَـــل مِـــن فِرَاقِ الَّتـــي في جَفنِـها سَقَمٌ قَـدْ زَادَنِـي عِـــلَّلًا مِـــنـــهُ عـلـــى عِلَلِي

أُمسِي عَلَى وَجَلٍ خَوفَ الفِراقِ كمـــا تُمسِي الأَعَادِي مِنْ سَيفي عَلى وَجَلِ

ويصف ألم اشتياقه لعبلة، وكيف ألّا اهتمام له في هذه الدُّنيا إلا هي، فمن أجلها فقط سيقبل الذل:[137]

وَلَـولا أَنَّـــنِي أَخلـــو بِـــنَـــفسِي وَأَطفِي بالدُّمُوعِ جَوى غَرامـــي

لَـــمِتُّ أَسًـى وَلَم أَشكُو لأَيّي أَغـارُ عَـــلـيكِ يا بدرَ الـتَّـمـامِ

أُذَلُّ لِعَبلَةَ مِن فَـــرطِ وِجـــدِي وَأجـعَـــلُها مِنَ الدُّنيا اهتِمامِي

ويقول مُخبِرًا عبلة عن حاله، مُبيّنًا لها كيف أنَّ صبره على ألم الطعن أهون عليه من صبره على بعدها:[138]

وَلَم يَـــبقَ لِي يَا عَبلُ شَخصٌ مُعَرَّفٌ سِـوَى كَـبِـــدٌ حَـرَّى تَـــذوبُ فَأَسقَمُ

وَتِـــلكَ عِـظَـــامٌ بَـــالِـيَـــاتٌ وأضـلُعٌ عـــلـــى جِـلـدِهَا جَيشُ الصُّدُودِ مُخيّمُ

بَـــكَيـــتُ مِـنَ الـبَـيـنِ المُشِتِّ وَإنَّني صَـــبـــورٌ عـلى طَعـنِ القَنا لَو عَلِمتُمُ

كما يصف لها حاله في اشتياقه:[139]

مَا رَاعَنِي إلَّا الفِراقُ وَجورُه فأَطَعتُه وَالدَّهرُ طَوعُ زِمَامِي

وهكذا يقول في شدَّة بكائه من فراق عبلة:[140]

مَا بَالُ عَينِكَ لا تَملُّ مِنَ البُكا رَمَدٌ بِعَينِكَ أَم جَفاكَ كَراها

ويقول عندما هرب والد عبلة بها مخاطبًا الطير طالبًا إياه أن يخبرهم بحاله:[141]

نَاشَدتُكَ اللّٰه يا طَيرَ الحَمامِ إذا رأيتَ يَومًا حُمولَ القَومِ فانعَانِي

وَقُـــل طَـــريحًا تَركنَاهُ وَقَد فَنِيَت دُمـوعُـهُ وَهـــوَ يَـبـكِي بالدَّمِ القانِي

وخلاصة القول في هذا المبحث:

1. إنَّ عنترة لا يضعف إلا أمام عبلة، ويقوى من أجل عبلة.

2. لا يأتي ذكره للخوف من فراق عبلة في المعارك؛ لعلَّ هذا حتى لا يسيء عدوه فهم المقصد، ويظنَّ أن خوف عنترة الحقيقي هو من المعركة.

المبحث الرابع

ثنائية الشجاعة والنسب

عانى عنترة من قومه، وجورهم عليه؛ لذلك تكونت عنده ثنائية جديدة على إثر هذا الجور، فقبيلته ذات سمعة مرموقة، لكن من ناحية أخرى قد أساؤا إليه أيما إساءة يرفض على إثرها أن ينسب فضل وصوله لهذه المكانة إلى قبيلته إنما لنفسه، إلا أنه في بعض أبياته يمدحهم، ويفخر بنسب نفسه إليهم.

- **أبياته في الشجاعة:**

الأبيات التي سيتم ذكرها هنا سيكون المقصد منها أمران: الأول – حديثه عن إساءة قومه إليه، والثاني – نسب مكانته إلى شجاعته وفعاله، ومن أشكال الثاني قوله:[142]

وَقَد طَلَبتُ مِنَ العَلياءِ مَنزِلَةً بِصارِمي لا بِأُمِّي لا ولا بِـأبِـي

ومثل ذلك قوله مؤكدًا أنه هو الذي رفع من شأن عبس، وليس العكس:[143]

وَلَولا صَارِمي وسِنَانَ رُمحِي لَما رَفَعَتْ بَنو عَبسٍ العِمادا

ويشابه ذلك قوله:[144]

وَلَـولا سِنَانِي والحُسامُ وَهِمَّـتِـي لَما ذُكِرَت عَبسٌ ولا نَالَها فَخـرُ

بَنَيتُ لَهُم بَيتًا رَفيعًا مِنَ العُلا تَـخُـرُّ لَـه الجوزَاءُ والفَرعُ والغَفرُ

ويقول أنَّهُ الحصن والمدافع الحقيقي عن عبس:[145]

أنَا الحُصنُ المُشَيَّدُ لِآلِ عَبسٍ إذَا مَا شَادَتِ الأَبطَالُ حُصنًا

ثم يؤكد في أبيات أخرى أن الفخر الحقيقي يكون فيما يفعله بالمعارك:[146]

لَعَمري ما الفِخَارُ بِكَسبِ مالٍ وَلا يُـدْعَـى الـغَنيُّ مِنَ السَّراةِ

سَـتَـذكُـرُنِي المَعامِعُ كُلَّ وَقتٍ عَـلـى طولِ الحَياةِ إلى المَمَاتِ

بالنسبة له الجبان هو الذي يفخر بماله، وثرائه، أما عنترة ففخره في خوضه المعارك، التي كنَّى عنها في الأبيات التالية بالخيل:[147]

إذَا افتَخَرَ الجَبَانُ بِبَذلِ مَالٍ فَـفَـخـرِي بِالمُضَمَّـرَةِ الـعِتاق

ومثل ذلك قوله عند مبارزته شخصًا يدعى أنس بن مدرك:[148]

إذَا ذُكِرَ الـفَـخـرُ بِـأَرضِ قَـومٍ فَضَربُ السَّيفِ في الهَيجَاءِ فَخري

ويقول أنَّ الفخر الحقيقي ليس في عدد المقاتلين بل فيما يفعله المقاتل في المعركة:[149]

وَمَا الفَخرُ في جَمعِ الجُيوشِ وإنَّما فِخَارُ الفَتَى تَفريقُ جَمعِ العَساكِرِ

كما أنَّه قد نال العلا عن طريق قتاله لا عن طريق عدد الجيش الذي كان به، ولا قومه الذين أنكروا عليه همته وجعلوه عبدًا:[150]

إنْ كُـنـتُ في عَدَدِ العَبيدِ فَهِمَّتي فَـوقَ الـثُّـريَّا والـسِّـماكِ الأَعزَلِ

أَو أَنكَرَت فُرسانُ عَبسٍ نِسبَـتِـي فَـسِـنانُ رُمحي والحُسَامُ يُقِرُّ لي

وَبِـذابِـلي وَمُـهَـنَّدِي نِلتُ العُلا لا بِالـقَـرَابَـةِ والـعَـديدِ الأَجـزَلِ

ويؤكد مجددًا أنَّ رفعة المكانة الحقيقية تكون فيما يبذله الفارس في المعارك:[151]

إلـــى أَنْ أَرتَـــقِـــي دَرَجَ المَعَالي بِطَعنِ الرِّمحِ أَو ضَربِ الحُسامِ

مثل ذلك قوله:[152]

عَلَوتُ بِصَارِمِي وسِنانِ رُمحي عَلَى أُفُقِ السُّهَا وَالفَرقَـــدَيـنِ

ويخبر الآخرين أن المجد يبنيه الإنسان بيديه في المعارك:[153]

لَـعَـمـرُكَ إنَّ المَجدَ والفَخرَ والعُلا وَنَـيـلَ الأمـانِـي وارتِـفـاعَ المَـــراتِبِ

لِمـَن يَـلـتَـقـي أَبـطَـالَها وَسَـرَاتَها بِـــقَـلـبٍ صَـبُـورٍ عِندَ وَقعِ المَضارِبِ

وَيَـبـنِـي بِحَـدِّ السَّيفِ مَجدًا مُشَيَّدًا عَـلـى فَـلَكِ العَلياءِ وَفَوقَ الكَواكِبِ

كما يقولُ مبيِّنًا أنَّ رفعة مكانته عائدة إلى زهو فعاله على نسبه:[154]

سَوَادِي بَياضٌ حِينَ تَبدُو شَمَائِلي وَفِعلي عَلى الأَنسابِ يزهُو ويَفخَرُ

ويصف جور قومه عليه، وظلمهم إياه بعدما فعله لهم:[155]

أذكُـرُ قَـومِـي ظُـلمَهُم لي وَبَغيَهُـم وَقِلَّةَ إنصافِي على القُربِ والبُعدِ

بَنَيتُ لَهُم بالسَّيفِ مَجدًا مُشَـيَّـدًا فَلَمَّا تَناهَى مَجدُهم هَدَموا مَجدِي

يعاتب دهره شاكيًا ظلم قومه له، وكيف أنه أرادهم أن يكونوا عونًا له إلا أنهم أذوه أكثر، ولا يعاملوه بالحُسنى إلا عند حاجتهم إليه، فما نفعه حقًّا إلا فعاله في المعارك:[156]

خَـــدَمـتُ أُنـاسًـا واتَّـخَـذتُ أقَـارِبًـا لِـعَـونِـي ولَـكِـن أصبَحُوا كَالعَقَارِبِ

يُـنـادُونَـنِـي في السَّـلـمِ يـا ابنَ رُبَيبَـةً وَعِـنـدَ صِـدامِ الخَيلِ يا ابنَ الأطايبِ

فإنْ هُـم نَـستَـونِـي فـالصَّـوارِمُ والقَنَا تُـــذَكِّـرُهُـم فِـعـلِـي وَوَقـعَ مَضارِبِي

وكذلك يشكو ظلم قومه له على الرغم من استعانتهم به دومًا في المعارك قائلًا:[157]

وَقَومِي مَعَ الأَيَّامِ عَونٌ على دَمِي وَقَـد طَـلَـبونِي بِالقَنا والصَّفائِحِ

على إثر ذلك يقول: إنه لو غادر عبسًا لبقيت بلا فارسٍ:[158]

وإنْ تَرَحَّلتِ عَن عَبسٍ فَلا تَقِفي في دارِ ذُلٍّ ولا تُـصـغِي إلى العَذَلِ

لأنَّ أَرضَـهُـم مِـن بَـعـدِ رِحـلَـتِـنا تَـبـقَـى بِـلا فَارِسٍ يُدعَى ولا بَطَلِ

ويقول إن جميع الأقوام تهابه، إلا قومه يزيدون عليه الأذية:[159]

إذا مَا رآنِي الغَربُ ذُلَّ لِهَيبَتِي وما زَالَ بَاعُ الشَّرقِ عَنِّي يَقصُرُ

وفي ذلك يتساءل مستغربًا:[160]

أَظُلمًا وَرُمحِي نَاصِرِي وحُسامِي وَذُلًّا وَعِـزِّي قَـائِـدٌ بِـزِمـامِـي

- **أبياته في النَّسب:**

يذكر عنترة في أبيات قليلة فضل قومه عليه، وكيف أنَّهم ذووا رفعة ومكانة بين الأقوام الأخرى، ويفتخر بنسبه إليهم في المعارك، فيقول في ذلك:[161]

وَكَيفَ أَنامُ عَلى سَادَاتِ قَومٍ أنـا فِـي فَـضلِ نِعَمِهِم رَبِيتُ

وَلِـي بَـيـتٌ عـلا فُلْكَ الثُّرَيَّا تَـخِـرُّ لِـعِظَمِ هَيبَتِهِ البُيُوتُ

كما يمدح جماعة من قومه كان يعتمد عليهم في مهماته:[162]

وَيَصحَبُنِي مِن آلِ عَبسٍ عِصابَةٌ لَـهَـا شَـرَفٌ بينَ القَبائلِ يَمتَدُّ

بَهالَيلُ مِثلُ الأَسَدِ فِي كُلّ مَوطِنٍ كَأَنَّ دَمَ الأعدَاءِ في فَمِهِم شَهدُ

ويفخر بقومه قائلًا:[163]

وَلا أَسلُـو وَلا أَشـفِي الأعَادي فَـستَـادَاتِـي لَهُم فَخرٌ وَفَضلُ

أُنـاسٌ أَنـزَلـونـا فـي مَـكَـانٍ مِنَ العَلياءِ فَوقَ النَّجمِ يَعلو

ومن فخره بهم قوله:[164]

إذَا خَطَرَتْ عَبسٌ وَرائي بِالقَنَا عَلَوتُ بِها بَيتًا مِنَ المَجدِ مُعلَما

وكذلك قوله:[165]

وَنِعمَ فَوارِسُ الهَيجَاءِ قَومِي إذَا عَـلِـقوا الأسِنَّةَ بِالبَنان

ومن ذلك قوله:[166]

نَادَيتُ عَبسًا فاستَجَابوا بِالقَنا وَيـكُـلّ أبـيَـضَ صارِمٍ لم يَفْلُلِ

ويفتخر بنفسه، وبقومه، وبنسبه إليهم قائلًا:[167]

وَفَـوارِسُـنـا بَـنـو عَـبسٍ وأنا لُيـوثُ الحَربِ ما بَينَ البَرِيَـةْ

أنَا العَبدُ الَّذي بدِيارِ عَبسٍ رَبـيـتُ بِـعِـزَّةِ النَّفسِ الأَبِيَّةْ

فنسبة نفسه إليهم أثناء حديثه عن معاركه من أوجه فخره بهم، ومن ذلك أيضًا قوله:[168]

فَصَرَخْتُ فِيهِم صَرخَةً عَبسيَّةً كالرَّعدِ تَدوي في قُلوبِ العَسكَرِ

يقول مفتَخِرًا بنسبته إلى والديه:[169]

وَأَنا المُجَرَّبُ في المَواقِفِ كُلِّها مِنْ آلِ عَبسٍ مَنصِبي وفِعالِي

مِـنـهُـم أبِي شَدَّادَ أكرَمُ وَالِدٍ والأُمُّ مِـنْ حـامٍ فَـهُـم أخوالِي

ومثل ذلك قوله:[170]

يُقَدِّمُهُ فَتًى مِن آلِ عَبسٍ أَخُوهُ وَأُمُّهُ من آلِ حامٍ

قال يمدح قومه في معركة بينهم وبين العجم:[171]

للهِ دَرُّ بَـنِـي عَـبـسٍ لَقَد بَلَغوا كُلَّ الفِخارِ وَنَالوا غَايَةَ الشَّرَفِ

ومثل ذلك قوله:[172]

للهِ دَرُّ بَـنـي عَبسٍ قَد نَسَلوا مِنَ الأكَارِمِ ما قَد تَنسِلُ العَرَبُ

كما يقول في حب قومه رغم ما فعلوه به:[173]

أُحِبُّ بَنِي عَبسٍ وَلَو هَدَروا دَمِي مَحَبَّةَ عَبدٍ صادِقِ القَولِ صابرِ

وفي ذلك أيضًا قوله:[174]

فَفِدًى لقَومِي عِندَ كُلّ عَظِيمَةٍ نَـفـسِـي وَرَاحِـلَـتـي وَسَائِرَ مَالِي

خلاصة القول:

1. إنَّ أبيات عنترة التي تأتي مادحة لقومه تكون قد نُظِمَت في المعارك.

2. أبياته التي يمدح فيها نفسه لا يذم بها قومه، ولا يذكر ظلمهم له فقط يكتفي بذكر خصاله، والأبيات التي وردت في الظلم جاءت على هيئة خطاب مباشر لقومه.

خاتمة

تمَّ بحمد الله وفضله إنهاء هذا البحث الذي يتناول أبيات عنترة، وثنائياته التي نشأت أساسًا من معاناته في حياته منذ الصغر، فبات لا يعلم أين ينتمي، ولا يعتمد قولًا واحدًا في مواقفه؛ إذ نبعت هذه الأمور من عُقدٍ قد كبرت مع عنترة، وإثر قراءة أبياته تم استنتاج عدة أمور منها:

1. يكثر من استخدام الغربان؛ ليصف حاله في البين، والاشتياق لعبلة.

2. يمدح عنترة في بعض أبياته البياض ، لكن في أغلب أبياته يفخر بسواد لونه، ومن الملاحظ أنه عندما يتكلم عن البياض يقصد بذلك عبلة، كأنه يخجل من لونه أمامها، أما حين يمدح السواد فيكون ذلك عند فخره في المعارك.

3. ينظر إلى الموت على أنه سلاح يملكه، أو أنه رِداؤه، ويوضح عدم خوفه من خوضه في غماره، إلا أنه حين يتكلم عن عبلة يتحدث عن خوفه من الموت وتركها؛ أي إنه لا يهاب الموت إلا إذا تعلَّق الأمر بمحبوبته.

4. يذكر في كل أبياته عبلة، ويذكر مدى ضعفه أمامها، إلا أنه دومًا يتبع هذه الأبيات أبياتًا أخرى يبين لها مدى قوته في المعارك، ومدى خوف الأعداء منه.

5. من شدة فخره بقوته لا يشير إلى أعدائه في المعارك إلا بلفظة أبطال؛ ليبين أنه لا يهزم أناسًا ضعفاء أو عاديين، إنما يهزم أناسًا أشدَّاءَ أولي بأس.

6. حين يخاطب عنترة قبيلته – خاصة في الأبيات التي يشوبها الحزن – يشتكي لهم ما فعلوه به، أما حين يكون كلامه موجَّهًا إلى الأعداء فهو يفخر بنسبه وقومه.

7. يؤكِّد دومًا أنَّ شجاعته وقوته هي التي رفعت من شأنه، وإن ذكر قومه فدومًا يوضح لهم، ولأعدائه، ولعبلة أن قوته وضراوته وكل تلك الخصال القوية التي به هي التي جعلته عظيمًا.

8. أكثر الأبيات وردت في ثنائيتي (الأبيض والأسود) و(القوة والشجاعة)، وذلك يشير إلى حجم أثر هذين الأمرين في نفسه.

الحواشي

1. ابن منظور: لسان العرب – القاهرة – دار المعارف – مادة ن ه ج – ص4554
2. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز – القاهرة – دار التحرير للطبع والنشر – 1989م – ص636
3. ابن منظور: لسان العرب – المرجع السابق نفسه – ص365
4. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز – المرجع السابق نفسه – ص64

*دي سوسير: عالم سويسري وضع علم اللسانيات؛ وهو علم يدرس اللغات الإنسانية بكل جوانبها لمعرفة خصائصها وتراكيبها.

5. د. صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر – القاهرة – ميريت للنشر والمعلومات – ط1 – 2002م.
6. د. إبراهيم عوض: النقد العربي الحديث – القاهرة – مكتبة زهراء الشرق – 2003م – ص217.
7. د. صلاح أحمد صالح: مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية (الثنائية الضدية في شعر الحطيئة) جامعة الموصل – ع42 – 2019م – ص757
8. مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز – مرجع سابق – ص88.
9. المرجع السابق نفسه – ص378.
10. د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي – دار الكتاب اللبناني – ج1 – ص379.

11. د. سمر الديوب: الثنائيات الضدية (دراسات في الشعر العربي القديم) – دمشق – منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب – وزارة الثقافة – 2009م – ص5.
12. أحمد الأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها – بيروت – المكتبة العصرية – ص144.
13. ديوان عنتر المطبوع بنفقة خليل الخوري – بيروت مطبعة الآداب – 1893م – ص91.
14. المصدر السابق نفسه – ص9
15. المصدر السابق نفسه – ص10
16. المصدر السابق نفسه – ص10
17. المصدر السابق نفسه – ص29
18. المصدر السابق نفسه – ص11
19. المصدر السابق نفسه – ص16
20. المصدر السابق نفسه – ص27
21. المصدر السابق نفسه – ص39
22. المصدر السابق نفسه – ص40
23. المصدر السابق نفسه – ص53
24. المصدر السابق نفسه – ص31
25. المصدر السابق نفسه – ص45
26. المصدر السابق نفسه – ص50
27. المصدر السابق نفسه – ص72
28. المصدر السابق نفسه – ص94
29. المصدر السابق نفسه – ص44
30. المصدر السابق نفسه – ص16
31. المصدر السابق نفسه – ص32
32. المصدر السابق نفسه – ص33
33. المصدر السابق نفسه – ص35
34. المصدر السابق نفسه – ص45
35. المصدر السابق نفسه – ص57
36. المصدر السابق نفسه – ص38
37. المصدر السابق نفسه – ص53

*الأدهم: شديد السواد.

38. المصدر السابق نفسه – ص71
39. المصدر السابق نفسه – ص92
40. المصدر السابق نفسه – ص67
41. المصدر السابق نفسه – ص34
42. المصدر السابق نفسه – ص35
43. المصدر السابق نفسه – ص61
44. المصدر السابق نفسه – ص63
45. المصدر السابق نفسه – ص38
46. المصدر السابق نفسه – ص48
47. المصدر السابق نفسه – ص87
48. المصدر السابق نفسه – ص89
49. المصدر السابق نفسه – ص23
50. بخشان رحيم رشيد المظفري: ثنائية الأبيض والأسود في شعر عنترة بن شداد العبسي – العراق – جامعة رابة رين – ص520
51. ديوان عنتر – المصدر السابق نفسه – ص66
52. المصدر السابق نفسه – ص80
53. المصدر السابق نفسه – ص70
54. المصدر السابق نفسه – ص29
55. المصدر السابق نفسه – ص40
56. المصدر السابق نفسه – ص44

57. المصدر السابق نفسه – ص89
58. المصدر السابق نفسه – ص72
59. المصدر السابق نفسه – ص16
60. المصدر السابق نفسه – ص25
61. المصدر السابق نفسه – ص27
62. المصدر السابق نفسه – ص35
63. المصدر السابق نفسه – ص34
64. المصدر السابق نفسه – ص44
65. المصدر السابق نفسه – ص75
66. المصدر السابق نفسه – ص19
67. المصدر السابق نفسه – ص26
68. المصدر السابق نفسه – ص73
69. المصدر السابق نفسه – ص23
70. المصدر السابق نفسه – ص37
71. المصدر السابق نفسه – ص85
72. المصدر السابق نفسه – ص10
73. المصدر السابق نفسه – ص68
74. المصدر السابق نفسه – ص40
75. المصدر السابق نفسه – ص40
76. المصدر السابق نفسه – ص43
77. المصدر السابق نفسه – ص51
78. المصدر السابق نفسه – ص64
79. المصدر السابق نفسه – ص94
80. المصدر السابق نفسه – ص56
81. المصدر السابق نفسه – ص59
82. المصدر السابق نفسه – ص87
83. المصدر السابق نفسه – ص90
84. المصدر السابق نفسه – ص16
85. المصدر السابق نفسه – ص18
86. المصدر السابق نفسه – ص52
87. المصدر السابق نفسه – ص21
88. المصدر السابق نفسه – ص74
89. المصدر السابق نفسه – ص32
90. المصدر السابق نفسه – ص46
91. المصدر السابق نفسه – ص9
92. المصدر السابق نفسه – ص15
93. المصدر السابق نفسه – ص84
94. المصدر السابق نفسه – ص49
95. المصدر السابق نفسه – ص43
96. المصدر السابق نفسه – ص58
97. المصدر السابق نفسه – ص9
98. المصدر السابق نفسه – ص19
99. المصدر السابق نفسه – ص88
100. المصدر السابق نفسه – ص71
101. المصدر السابق نفسه – ص51
102. المصدر السابق نفسه – ص10
103. المصدر السابق نفسه – ص13
104. المصدر السابق نفسه – ص17
105. المصدر السابق نفسه – ص57

106. المصدر السابق نفسه – ص66
107. المصدر السابق نفسه – ص12
108. المصدر السابق نفسه – ص21
109. المصدر السابق نفسه – ص34
110. المصدر السابق نفسه – ص42
111. المصدر السابق نفسه – ص52
112. المصدر السابق نفسه – ص86
113. المصدر السابق نفسه – ص56
114. المصدر السابق نفسه – ص72
115. المصدر السابق نفسه – ص73
116. المصدر السابق نفسه – ص76
117. المصدر السابق نفسه – ص77
118. المصدر السابق نفسه – ص93
119. المصدر السابق نفسه – ص83
120. المصدر السابق نفسه – ص88
121. المصدر السابق نفسه – ص95
122. المصدر السابق نفسه – ص9
123. المصدر السابق نفسه – ص12
124. المصدر السابق نفسه – ص17
125. المصدر السابق نفسه – ص38
126. المصدر السابق نفسه – ص19
127. المصدر السابق نفسه – ص27
128. المصدر السابق نفسه – ص34
129. المصدر السابق نفسه – ص35
130. المصدر السابق نفسه – ص41
131. المصدر السابق نفسه – ص42
132. المصدر السابق نفسه – ص45
133. المصدر السابق نفسه – ص60

*ينظر ص21 من هذا البحث.

134. المصدر السابق نفسه – ص61
135. المصدر السابق نفسه – ص63
136. المصدر السابق نفسه – ص66
137. المصدر السابق نفسه – ص73
138. المصدر السابق نفسه – ص74
139. المصدر السابق نفسه – ص77
140. المصدر السابق نفسه – ص93
141. المصدر السابق نفسه – ص87
142. المصدر السابق نفسه – ص17
143. المصدر السابق نفسه – ص29
144. المصدر السابق نفسه – ص44
145. المصدر السابق نفسه – ص89
146. المصدر السابق نفسه – ص18
147. المصدر السابق نفسه – ص56
148. المصدر السابق نفسه – ص39
149. المصدر السابق نفسه – ص41
150. المصدر السابق نفسه – ص70
151. المصدر السابق نفسه – ص73
152. المصدر السابق نفسه – ص86

153. المصدر السابق نفسه – ص16
154. المصدر السابق نفسه – ص40
155. المصدر السابق نفسه – ص31
156. المصدر السابق نفسه – ص17
157. المصدر السابق نفسه – ص21
158. المصدر السابق نفسه – ص66
159. المصدر السابق نفسه – ص39
160. المصدر السابق نفسه – ص77
161. المصدر السابق نفسه – ص18 وص19
162. المصدر السابق نفسه – ص30
163. المصدر السابق نفسه – ص63
164. المصدر السابق نفسه – ص84
165. المصدر السابق نفسه – ص90
166. المصدر السابق نفسه – ص66
167. المصدر السابق نفسه – ص95
168. المصدر السابق نفسه – ص43
169. المصدر السابق نفسه – ص65
170. المصدر السابق نفسه – ص80
171. المصدر السابق نفسه – ص53
172. المصدر السابق نفسه – ص11
173. المصدر السابق نفسه – ص41
174. المصدر السابق نفسه – ص65